١٢ـ القَاهِرَة

وقفت على قمة هرم الجيزة الأكبر، وألقيت بنظرة إلى ما انبسط امامي، فرأيت دنيا تآمرت الطبيعة والانسان على اقامتها وتزويقها وزخرفتها. فقد حباها الله ماء النيل الذي يحيي الأرض ويبعث فيها الروح والريحان، ومكّن للانسان ان ينقل هذا الماء إلى أمكنة متعددة. لكن حيث يقف الماء، تبدأ الصحراء. وهكذا فقد رأيت خطاً يفصل اللون الأصفر عن الأخضر من دون ان يكون بين اللونين خلاف او بين الأرضين شقاق.

وخلف هذه الحقول الخضراء والأرض الصفراء، انساب نهر لمعت مياهه في شمس الأصيل، فكانت كأنها عصا موسى جاءت تأكل السحر والساحرين. فتلوّت لاحقة بهم وتعوّج سيرها تبعاً لذلك، فغش بها الناس فظنوها حية تسعى، وما هي إلا الخير والبركة.

ورأيت أمامي، على شيء من البعد، جبل المقطم تعلوه قلعة للحراسة ومسجد للعبادة. وبين المقطم والأهرام نشر التاريخ أمجاده، التليد منها والطريف، فثمة ممفيس وابو هولها واهرامها، وهناك مصر العتيقة التي وجدها العرب يوم جاءوا مصر فاتحين وكنيستها الكبرى ماري جرجس، وعلى مقربة منها فسطاط عمرو بن العاص وجامعه، وهناك القطائع والعسكر ثم القاهرة المعزية، والمنائر تزين الأفق، والأزهر يؤوي العلم، وجامع السلطان حسن كأنه قلعة للفن. وقد رأيتُ هذا المنظر بعد ذلك مرات من الطائرة، لكن قمة الهرم أثبت للرائي، وأكثر عوناً للمتأمل وأرحب فسحة لصاحب الأمل.

فتح عمرو بن العاص مصر، ونصب فسطاطه الموقت، وهمّ باتخاذ عاصمة غربي نهر النيل، لكن عمر بن الخطاب ابى ذلك، فظل الفسطاط العاصمة، ونما واتسع ونشأت حوله الارباض والبساتين. وأقام بنو طولون وغيرهم القطائع والعسكر. وجاء الفاطميون فأنشأوا قاهرة المعز. ويبدو ان اسم الفسطاط ظل غالباً حتى في القرن الرابع (العاشر) اذ زار مصر المقدسي فقال في وصف الفسطاط، وهو المدقق الحريص:

«الفسطاط هو مصر في كل قول لأنه قد جمع الدواوين، وحوى امير المؤمنين، وفصل بين المغرب وديار العرب واتسع بقعته وكثر ناسه وتنضر اقليمه واشتهر اسمه

وجلّ قدره. فهو مصر وناسخ بغداد ومفخر الاسلام ومتجر الانام، واجل من مدينة السلام. خزانة المغرب ومطرح المشرق وعامر الموسم، ليس في الامصار آهل منه. كثير الاجلة والمشايخ عجيب المتاجر والخصائص حسن الاسواق والمعايش. الى حمّاماته المنتهى ولقياسيره لباقة وبها، ليس في الاسلام اكبر مجالس من جامعه، ولا أحسن تجملاً من اهله، ولا اكثر مراكب من ساحله. أهل من نيسابور واجلّ من البصرة واكبر من دمشق. به اطعمة لطيفة، وادامات نظيفة، وحلاوات رخيصة، كثير الموز والرطب، غزير البقول والحطب. خفيف الما، صحيح الهوا، معدن العلما، طيّب الشتا، اهله أهل سلامة وعافية، ومعروف كثير وصدقة، نغمتهم بالقرآن حسنة، ورغبتهم في الخير بيّنة، وحسن عبادتهم في الآفاق معروفة. قد استراحوا من أذى الامطار، وامنوا من غاغة الاشرار. ينتقدون الخطيب والامام ولا يقدّمون الا طيّباً وان بذلوا الاموال. قاضيهم ابداً خطير، والمحتسب كالأمير، ولا ينفكون ابداً من نظر السلطان والوزير، ولولا عيوب له كثير، ما كان له في العالم من نظير. وهو نحو ثلثي فرسخ طبقات بعضها فوق بعض، وكانت جانبين: الفسطاط والجيزة، ثم شقّ بعض الخلفاء من ولد العبّاس خليجاً على قطعة منها فسمّيت تلك القطعة الجزيرة لأنها بين العمود والخليج، وسمّي خليج أمير المؤمنين، منه شربهم. ودورهم اربع طبقات وخمس كالمناير، يدخل اليهم الضياء من الوسط. وسمعت انه يسكن الدار الواحدة نحو مائتي نفس، وانه لما صار اليها الحسن بن احمد القرمطي خرج الناس اليه فرآهم مثل الجراد فهاله ذلك، وقال: ما هذا؟ قيل: هؤلاء نظّارة مصر ومن ما يخرج اكثر. وكنت يوماً أمشي على الساحل واتعجب من كثرة المراكب الراسية والسائرة، فقال لي رجل منهم: من أين انت؟ قلت: من بيت المقدس. قال: بلد كبير اعلمك يا سيدي، اعزّك الله، ان على هذا الساحل وما قد اقلع منه الى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهبت الى بلدك لحملت اهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال ههنا مدينة»[1].

وتحدث المقدسي في مكان آخر عن انطباعاته عن جوامع البلد وأسواقه فقال:

«وأبطيت يوماً عن السعي الى الجمعة فألفيت الصفوف في الاسواق على اكثر من الف ذراع من الجامع، ورأيت القياسير والمساجد والدكاكين حوله مملوءة من كل جانب من المصلين. وهذا الجامع يسمى السفلاني من عمل عمرو بن العاص وفيه منبره حسن البناء، في حيطانه شيء من الفسيفس على اعمدة رخام أكبر من جامع دمشق، والازدحام فيه اكثر من الجوامع الست. قد التفت عليه الأسواق إلا أن بينها وبينه من نحو القبلة دار الشط وخزائن وميضاة. وهو اعمر موضع بمصر وزقاق القناديل عن يساره، وما يدريك ما زقاق القناديل. والجامع الفوقاني من بناء بني طيلون اكبر وأبهى من السفلاني على اساطين واسعة مصهرجة وسقوفه عالية، في وسطه قبّة على عمل قبّة زمزم فيها سقاية، مشرف على قمم الخليج وغيره وله زيادات وخلفه دار حسنة،

ومنارته من حجر صغيرة، درجها من خارج، والحدّ بين اسفل وفوق مسجد عبد الله قد بني على مساحة الكعبة. ويطول الوصف بنعت اسواقه وجلالته غير انه أجلّ امصار المسلمين واكبر مفاخرهم وآهل بلدانهم. ومع هذه الكثرة اشتريت به الخبز الحوّاري ولا يخبزون غيره ثلاثين رطلاً بدورهم والبيض ثمانية بدانق والموز والرطب رخيص يجيء ابداً اليه ثمرات الشام والمغرب، وتسير الرفاق اليه من العراق والمشرق، ويقطع اليه مراكب الجزيرة والروم، تجارته عجيبة ومعايشه مفيدة وامواله كثيرة. لا ترى احلى من مائه ولا اوطأ من اهله ولا أحسن من بزّه ولا ابرك من نهره»[٢].

وأشار المقدسي الى القاهرة فقال:

«والقاهرة مدينة بناها جوهر الفاطمي لما فتح مصر وقهر من فيها. كبيرة حسنة بها جامع بهي وقصر السلطان وسطها، محصّنة بابواب محددة على جادّة الشام ولا يمكن احداً دخول الفسطاط إلا منها لأنهما بين الجبل والنهر، ومصلى العيد من ورائها والمقابر بين المصر والجبل. والعزيزية قد اختلت وخربت عامّتها وكانت المصر في القديم وبها كان ينزل فرعون وثم قصره ومسجد يعقوب ويوسف. وعين شمس مدينة على جادّة الشام كثيرة المزارع بها مسدّ النيل ايام زيادته، جامعهم في السوق»[٣].

لكن القاهرة وجدت من يصفها ويؤرخ لها فيما بعد. فقد زارها ناصري خسرو في أواسط القرن الخامس (الحادي عشر)، وكانت المدينة قد استقرت واتسعت واينعت واثمرت عمراناً وتجارة وعلماً وأدباً. لذلك كان وصفه وثيقة تاريخية لطيفة، خاصة وهي حديث زائر لا تمدح مصري ببلده. فمن ذلك قوله عن القاهرة: «وأول مدينة يصل اليها المسافر من الشام الى مصر هي القاهرة. وتقع مدينة مصر جنوبها. وتسمى القاهرة «المعزية»، ويقال للمعسكر «الفسطاط».

«وقدرت أن في القاهرة ما لا يقل عن عشرين الف دكان، كلها ملك للسلطان، وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير مغربية في الشهر، وليس بينها ما تقل اجرته عن دينارين. والأربطة والحمامات والأبنية الأخرى كثيرة لا يحدها الحصر، وكلها ملك السلطان، إذ ليس لأحد ان يملك عقاراً او بيتاً غير المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه، وسمعت ان للسلطان ثمانية ألف بيت في القاهرة ومصر، وأنه يؤجرها ويحصل أجرتها كل شهر. يؤجرونها للناس برغبتهم ثم يتقاضون الأجر فلا يجبر شخص على شيء»[٤].

وقال عن قصر السلطان، وهو يقصد الخليفة الفاطمي طبعاً:

«ويقع قصر السلطان في وسط القاهرة، وهو طلق من جميع الجهات، ولا يتصل به اي بناء. وقد مسحه المهندسون فوجدوه مساوياً لمدينة ميافارقين، وكل ما حوله فضاء، ويحرسه كل ليلة الف رجل، خمسمائة راجل وخمسمائة فارس. وهم ينفخون البوق ويدقون الطبل والكوس من وقت صلاة المغرب ويدورون حول القصر حتى

الصباح. ويبدو هذا القصر، من خارج المدينة، كأنه جبل، لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة»(٥).

وانطباعات ناصري خسرو عن القاهرة تدل على ذوق مرهف وإحساس رقيق. فهو يقول:

«وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار. وفي قصر السلطان بساتين لا نظير لها، وقد نصبت السواقي لريها. وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت متنزهات.

«وحين كنت هناك أجر منزل مساحته عشرون ذراعاً في اثني عشر ذراعاً بخمسة عشر ديناراً مغربياً في الشهر. والمنزل الذي أقمت فيه، كان أربعة أدوار، ثلاثة منها مسكونة، والرابع خال، وقد عرض على صاحبه خمسة دنانير مغربية كأجرة شهرية، فرفض معتذراً بأنه يلزمه ان يقيم به أحياناً، ولو انه لم يحضر مرتين في السنة التي أقمتها هناك.

«وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول انها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة. وهي بعيدة عن بعضها، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر، ويستطيع كل مالك ان يعمل ما ينبغي لبيته في كل وقت، من هدم او اصلاح، دون أن يضايق جاره»(٦).

ولعلّ القارىء يحب ان يعرف كيف وصف الرحالة الجامع والأسواق، وهي دوماً تحيط بالجامع في كل بلد اسلامي. قال الكاتب:

«وفي وسط سوق مصر جامع يسمى «باب الجوامع»، شيده عمر بن العاص، أيام امارته على مصر من قبل عمر بن الخطاب. وهذا المسجد قائم على اربعمائة عمود من الرخام. والجدار الذي عليه المحراب مغطى كله بألواح الرخام الابيض التي كتب القرآن عليها بخط جميل. ويحيط بالمسجد، من جهاته الأربع، الأسواق، وعليها تفتح أبوابه. ويقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون. وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة، ولا يقل من فيه، في أي وقت، عن خمسة آلاف، من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها.

«ويوقدون في ليالي المواسم أكثر من سبعمائة قنديل. ويقال ان وزن الثريا خمسة وعشرون قنطاراً فضة، كل قنطار مائة رطل وكل رطل أربعة وأربعون ومائة درهم. ويقال انه حين تم صنعها لم يتسع لها باب من أبواب المسجد لكبرها، فخلعوا باباً وأدخلوها منه ثم ردوا الباب مكانه. ويفرش هذا المسجد بعشر طبقات من الحصير الجميل الملون بعضها فوق بعض، ويضاء كل ليلة بأكثر من مائة قنديل.

«وعلى الجانب الشمالي للمسجد سوق يسمى «سوق القناديل» لا يعرف سوق مثله في أي بلد، وفيه كل ما في العالم من طرائف. ورأيت هناك الأدوات التي تصنع من

الذبل كالأوعية والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها. ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلوراً غاية في الجمال، وهم يحضرونه من المغرب. وقيل انه ظهر حديثاً، عند بحر القلزم، بلور ألطف وأكثر شفافية من بلور المغرب. ورأيت أنياب الفيل، أحضرت من زنجبار، وكان وزن كثير منها يزيد على مائتي منّ. كما أحضر جلد بقر من الحبشة، يشبه جلد النمر، ويعملون منه النعال. وقد جلبوا من الحبشة طائراً أليفاً كبيراً، به نقط بيضاء وعلى رأسه تاج مثل الطاووس.

«ويصنعون بمصر الفخار من كل نوع، وهو لطيف وشفاف بحيث إذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل، وتصنع منه الكؤوس والأقداح والأطباق وغيرها، وهم يلونونها بحيث تشبه البوقلمون فتظهر بلون مختلف في كل جهة تكون بها، ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد في الصفاء والنظافة ويبيعونها بالوزن»(٧).

ولا بد لنا من العودة الى ابن جبير لنتعرف أحوال القاهرة في القرن السادس (الثاني عشر). فقد كان الرحّالة المغربي المشهور صاحب قلم دقيق أنيق وأسلوب بارع رشيق، فهو يتأثر ثم يعبّر عن تأثره بشكل يساعد على انطباع الصورة شمولاً، ويمكنك من تقصي الدقائق تفصيلاً. فاستمع إليه يقول في وصف المارستان. «المارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً، أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً او احتساباً، وعين قيماً له من أهل المعرفة، وضع لديه خزائن العقاقير ومكّنه من استعمال الأشربة واقامتها على اختلاف أنواعها. ووضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسي. وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة ما يليق بهم. وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى، ولهنّ من يكفلهنّ. ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين، ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها. والسلطان يتطلع لهذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد»(٨).

وكان بين من عرف القاهرة واطلع على أحوالها رحالة عالم هو عبد اللطيف البغدادي الذي كتب الكثير عن القطر بكامله. وقد أعجب بأبنية تلك المدينة فقال عنها:

«وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية، حتى انهم قلما يتركون مكاناً غفلاً خالياً عن مصلحة. ودورهم أقبح وغالب سكناهم في الأعالي ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة، وقلما تجد منزلاً إلا وتجد فيه باذاهيج. وباذاهيجاتهم كبار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الاحكام حتى انه يقوم على عمارة الواحد منها ماية دينار الى خمسمائة، وان كانت باذاهيجات المنازل

الصغار يغرم على الواحد منها دينار. وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة. ويبنون بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر، وشكل طوبهم على نصف طوب العراق»(٩).

لكن لعلّ ألطف صورة شاملة حصلنا عليها لمصر في القرن السابع (الثالث عشر) هي تلك التي خطها قلم ابن سعيد المغربي. والصورة طريفة واقعية، لأن الرجل روى ما اختبره مباشرة. قال ابن سعيد:

«ولما استقررت بالقاهرة تشوّقت الى معاينة الفسطاط فسار معي اليها أحد أصحاب القرية. فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لي بمثلها في بلد. فركب منها حماراً وأشار اليّ ان أركب حماراً آخر، فأنفت من ذلك جرياً على عادة من خلفته في بلاد المغرب. فأخبرني انه غير معيب على أعيان مصر، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزّة والشارة الظاهرة يركبونها فركبت. وعندما استويت راكباً أشار المكاري الى الحمار فطار بي وأثار من الغبار الاسود ما أعمى عيني ودنس ثيابي وعاينت ما كرهته. ولقلة معرفتي بركوب الحمار، وشدة عدوه على قانون لم أعهده، وقلة رفق المكاري وقعت في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج فقلت:

لقيت بمصر أشدّ البوار ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفي مكار يفوق الرياح لا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه مهلاً فلا يرعوي الى ان سجدت سجود العثار
وقد مدّ فوقي رواق الثرى وألحد فيها ضياء النهار

«فدفعت الى المكاري أجرته وقلت له: احسانك ان تتركني أمشي على رجلي؛ ومشيت الى ان بلغتها. وقدّرت في الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين. ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عني المسرّة وتأملت أسواراً مثلمة سوداء وآفاقاً مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضي الى خراب مغمور بمبان مشتتة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف. فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال الى ان صرت في أسواقها الضيقة فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التي على الجمال ما لا تفي به الا مشاهدته ومقاساته، الى ان انتهيت الى المسجد الجامع فعاينت من ضيق الأسواق التي حوله ما ذكرت ضده في جامع اشبيلية وجامع مراكش. ثم دخلت اليه فعاينت جامعاً كبيراً قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل في حصره التي تدور مع بعض حيطانه وتنبسط فيه. وأبصرت العامة رجالاً ونساء قد جعلوه معبراً بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق. والبياعون يبيعون

فيه أصناف المسكّرات والكعك وما سوى ذلك. والناس يأكلون في عدة أمكنة منه غير محتشمين لجري العادة عندهم بذلك. وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على كل من يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقاً، وفضلات مأكلهم مطروحة في صحن الجامع. وفي زواياه العنكبوت قد عظم نسجه في السقف والأركان والحيطان. والصبيان يلعبون في صحنه. وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة. الا ان مع ذلك على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا نجده في جامع اشبيلية مع زخرفه ...

«واستحسنت ما أبصرته من خلق المتصدرين لإقراء القرآن والفقه والنحو في عدة أماكن، وسألت عن موارد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك. ثم اخبرت ان اقتضاء ذلك يصعب الا بالجاه والتعب.

«ثم انفصلنا من هناك الى ساحل النيل فرأيت ساحلاً كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ... الاّ انه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الارزاق التي تصل من جميع أقطار النيل. ولئن قلت اني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فاني أقول حقاً.

«والحال ان أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام ... ورعاية قدر الصحبة وكثرة الممازحة والالفة، مما يطول ذكره. وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني والبحر الحجازي فانه فوق ما يوصف، وبه مجمع ذلك لا بالقاهرة، ومنها يجهز الى القاهرة وسائر البلاد. وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجري هذا المجرى. لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند كما ان جميع زيّ الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط. وكذلك ما ينسج ويصاغ، وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية والحراب في الفسطاط كثير. والقاهرة أجدّ وأعمر وأكثر زحمة باعتبار انتقال السلطان اليها وسكنى الاجناد فيها».

واهتم ابن سعيد بالمجتمع الفسطاطي القاهري اهتماماً خاصاً مع العناية بالمتجر والمصنع والناس. فقال في ذلك:

«والمكان المعروف بالقاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطاني لأن هنالك ساحة متسعة للعسكر والمفرجين ما بين القصرين. ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية. ولكن ذلك أمد قليل ثم تسير منه إلى أمد أضيق وتمرّ في مكان كدر حرج بين الدكاكين اذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان مما تضيق به الصدور وتسخن منه العيون. ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه الأمراء وهو في موكب جليل وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة، وقد سدت جميع الطرق بين يدي الدكاكين. ووقف الوزير وعظم الازدحام وكان في موضع طباخين والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه وقد كاد يهلك المشاة وكدت أهلك في جملتهم.

وأكثر دورب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والازبال، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها: ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالاً في ذلك. ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدري وتدركني وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين. ومن عيوب القاهرة انها في أرض النيل الأعظم ويموت الانسان فيها عطشاً لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها. وإذا احتاج الانسان إلى فرجة في نيلها مشى في مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي خارج السور الى موضع يعرف بالمقس. وجوّها لا يبرح كدراً مما تثيره الأرض من التراب الأسود.

«والفسطاط أكثر أرزاقاً وأرخص اسعاراً من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط. والمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها، وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه يبعد عن المدينة. والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط. لأنها أجلّ مدارس وأضخم خانات وأعظم دياراً لسكنى الأمراء فيها لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها. فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر وبها الطراز، وسائر الأشياء التي تتزين بها الرجال والنساء ... والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته ... ومطابخ السكر والمواضع التي يصنع بها الورق المنصوري مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة ... والمعايش فيها متعذرة نزرة لا سيما أصناف الفضلاء، وجوامك المدارس قليلة كدرة ...»(١٠).

وقد نال القاهرة نصيب من قلم ابن بطوطة الساحر، فتحدث عنها كثيراً، لكننا نكتفي بما قاله عن مدارسها:

«وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها. وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون، فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، ويذكر ان مجباه ألف دينار كل يوم. وأما الزوايا فكثيرة، وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة، والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف، ولكل زاوية شيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب. ومن عاداتهم في الطعام أنه يأتي خادم الزاوية الى الفقراء صباحاً، فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام، فإذا اجتمعوا للأكل، جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه في إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد. وطعامهم مرتان في اليوم، ولهم كسوة الصيف، ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر الى عشرين. ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة، والصابون لغسل أثوابهم، والأجرة لدخول الحمام، والزيت للاستصباح. وهم أعزاب وللمتزوجين زوايا على حدة. ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس، والمبيت بالزاوية. واجتماعهم بقبة داخل الزاوية. ومن عاداتهم ان يجلس كل واحد

منهم على سجادة مختصة به. وإذا صلوا الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة، فيأخذ كل فقير جزءاً ويختمون القرآن ويذكرون. ثم يقرأ القرآن على عادة أهل المشرق، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر.

«ومن عاداتهم مع القادم انه يأتي باب الزاوية، فيقف به مشدود الوسط، وعلى كاهله سجادة، وبيمناه العكاز، وبيسراه الابريق، فيعلم البواب خادم الزاوية بمكانه، فيخرج إليه ويسأله من أي البلاد أتى؟ وبأي الزوايا نزل في طريقه؟ ومن شيخه؟ فإذا عرف صحة قوله، أدخله الزاوية وفرش له سجادته في موضع يليق به، وأراه موضع الطهارة، فيجدد الوضوء، ويأتي الى سجادته فيحل وسطه ويصلي ركعتين، ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم. ومن عاداتهم انه إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم، فيذهب بها الى المسجد، ويفرشها لهم هنالك، ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم، فيأتون المسجد، ويصلي كل واحد على سجادته، فإذا فرغوا من الصلاة قرأوا القرآن على عادتهم، ثم ينصرفون مجتمعين الى الزاوية ومعهم شيخهم».

كانت القاهرة، منذ ان أنشأها الفاطميون، داراً للعلم يقبل عليها المتعطشون إليه والراغبون فيه. وقد ذكر غير واحد من مؤرخيها وزوارها كثرة مدارسها، على نحو ما نجد عند ابن جبير وابن بطوطة والمقريزي وسواهم. ولنذكر ان ابن خلدون استقر في القاهرة في النصف الثاني من القرن الثامن (الرابع عشر) وظل فيها حتى وفاته.

وقد هبط الرجل مصر وهو علم من الأعلام، ومؤرخ يشار إليه بالبنان. فلما عرف السلطان بأمره، أراد ان يفيد منه، فولي القضاء غير مرة، وولي التدريس بالقمحية. فهو يتحدث عن المدارس حديث مؤرخ عارف بشؤونها من الداخل. ولذلك فإننا ننقل بعض ما جاء في كلامه عن المدرسة القمحية. قال ابن خلدون:

«أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيّون ... بإنشاء المدارس لتدريس العلم، والخوانق لإقامة رسوم الفقراء في التخلق بآداب الصّوفية السنّية في مطارحة الاذكار، ونوافل الصلوات، أخذوا ذلك عمّن قبلهم من الدول الخلافية، فيختّطون مبانيها ويقفون الأراضي المغلة للإنفاق منها على طلبة العلم، ومتدربي الفقراء ... واقتدى بسنّتهم في ذلك من تحت أيديهم من أهل الرياسة والثروة، فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة القاهرة، وأصبحت معاشاً للفقراء من الفقهاء والصوفية، وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية، وآثارها الجميلة الخالدة.

«وكنت لأول قدومي على القاهرة، وحصولي في كفالة السلطان، شغرت مدرسة بمصر من إنشاء صلاح الدين بن أيوب، وقفها على المالكية يتدارسون بها الفقه، ووقف عليها أراضي من الفيّوم تغلّ القمح، فسميت لذلك القمحية، كما وقف أخرى على الشافعية هنالك، وتوفي مدرّسها حينئذ، فولاّني السلطان تدريسها ... وحضرني يوم جلوسي للتدريس فيها جماعة من أكابر الأمراء تنويهاً بذكري، وعناية من السلطان

ومنهم بجانبي، وخطبت يوم جلوسي في ذلك الحفل بخطبة ألممت فيها بذكر القوم بما يناسبهم، ويوفي حقهم، ووصفت المقام ...

«ولما سبحت في اللّج الأزرق، وخطوت من أفق المغرب الى أفق المشرق، حيث نهر النهار ينصبّ من صفحه المشرق، وشجرة الملك التي اعتزّ بها الاسلام تهتز في دوحة المعرق، وازهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق، وينابيع العلوم والفضائل تمدّ وشلنا من فراته المغدق، أولوني عناية وتشريفاً، وغمروني إحساناً ومعروفاً، وأوسعوا بهمتي إيضاحاً، ونكرتي تعريفاً ... فأقامني السلطان ـ أيّده الله ـ لتدريس العلم بهذا المكان، لا تقدّماً على الأعيان، ولا رغبة عن الفضلاء من أهل الشّان، واني موقن بالقصور، بين أهل العصور، معترف بالعجز عن المضاء في هذا الفضاء. وأنا أرغب من أهل اليد البيضاء، والمعارف المتّسعة الفضاء، ان يلمحوا بعين الارتضاء، ويتغمّدوا بالصّفح والاغضاء، والبضاعة بينهم مزجاة، والاعتراف من اللوم ـ إن شاء الله ـ منجاة، والحسنة من الاخوان مرتجاة ...

«وانفضّ ذلك المجلس، وقد شيّعتني العيون بالتّجلة والوقار، وتناجت النفوس بالأهلية للمناصب»(١١).

الهوامش

(١) المقدسي، ص ١٩٧ـ١٩٨.
(٢) نفس المكان، ص ١٩٨ـ٢٠٠.
(٣) نفس المكان، ص ٢٠٠.
(٤) ناصري خسرو: سفرنامه (ترجمة يحيى الخشاب) القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥.
(٥) نفس المكان، ص ٤٨.
(٦) نفس المكان، ص ٥٠.
(٧) نفس المكان، ص ٥٩ـ٦٠.
(٨) ابن جبير، ص ٢١.
(٩) البغدادي، عبد اللطيف: الافادة والاعتبار، القاهرة، مطبعة وادي النيل، ١٨٦٩، ص ٥٢.
(١٠) المقري، ابو العباس احمد: نفح الطيب، القاهرة، مطبعة البابي، لا. ت، ج ١، ص ٤٨٦ـ٤٩١.
(١١) ابن خلدون: التعريف ص ٢٧٩ـ٢٨٥.

من الاعمال الكاملة للدكتور نقولا زيادة , اصدار الدار الاهلية للنشر والتوزيع في بيروت , الجزء الثالث عشر - مدن عربية